

Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human
and Social Sciences



مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية
والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

الأدب المقارن والمركزيات الثقافية الغربية

Comparative Literature And Western Cultural Centralities

شبال سميرة¹ Chebel Samira

أستاذة محاضرة أ، المدرسة العليا للأساتذة بوزريعة العلامة

الشيخ مبارك بن محمد ابراهيمي الميلي الجزائري، قسم اللغة العربية وآدابها، مخبر علم تعليم اللغة العربية

Associate Professor A, Bouzareah high school sheikh Mubarak Ben Mohamed Brahimi El
Mili, Department of Arabic language and literature, Laboratory of science of teaching
Arabic language

chebel.samira@ensb.dz

تاريخ القبول : 2024/12/26

تاريخ الاستلام: 2024/10/10

الملخص:

حظي موضوع المركزية الثقافية الغربية باهتمام العديد من الباحثين المقارنين وقد أعيد طرحه في السنوات الأخيرة بشكل جاد نظرا لطغيان ثقافات المركز بصورة ملحوظة على بعض ثقافات الهامش من دول العالم الثالث ولا سيما البلدان العربية.

وتهدف هذه الورقة البحثية إلى فضح واقع المركزية الثقافية الغربية وعنصريتها ثم الكشف عن الجهود التي تبذلها الدراسات المقارنة والبعض من الباحثين من ثقافات الهامش لإعادة الاعتبار لها وإثبات أنها قادرة هي الأخرى على الإسهام في صناعة الفكر العالمي.

الكلمات المفتاحية: المركزية الثقافية، الغرب، الباحثون المقارنون، ثقافات الهامش، إعادة الاعتبار.

Abstract:

The concept of Western cultural centralities has garnered significant attention from comparative researchers and has been rigorously reexamined in recent years. This renewed focus stems from the evident dominance of central cultures over peripheral ones, particularly in Third World countries, including Arab nations.

This paper seeks to unveil the realities of Western cultural centralities and its inherent racism, while also highlighting the efforts of comparative studies and scholars from marginalized cultures to reclaim their value and assert their potential contributions to global intellectual discourse.

Keywords: Cultural Centralities, The West, Comparative Researchers, Peripheral Cultures, Reclaiming Value.

مقدمة:

(3) نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية
ل عبد الإله بلقزيز (2017).

(4) نحن والغرب، مقاربات في الخطاب النقدي الإسلامي،
إعداد وتحرير الأستاذ الدكتور عامر عبد زيد الوائلي وهاشم
الميلاني (2017).

(5) بين مركزية الأنا الغربية وميلاد الأصوليات : نقد
غارودي للذاتية الغربية، مقال ل نصر الدين بن سراي (مجلة
المعرفة الالكترونية، العدد 10، عام 2018).

ولدراسة هذا الموضوع استوجب علينا طرح مجموعة من
التساؤلات تتمثل فيما يلي:

ماهي الجهود المبذولة من قبل الدراسات المقارنة في
الكشف عن حقيقة المركزيات الثقافية ودرجة خطورتها على
أغلبية الثقافات التي تعتبرها من ثقافات الهامش؟ وماهي
الوسائل التي تسخرها في سبيل القضاء عليها؟ ثم هل توصل
الأدب المقارن من خلال مناهجه الحديثة إلى النتيجة المرجوة؟

ولالإجابة على هذه التساؤلات انتهجت المنهج التحليلي
الوصفي الذي يسمح بالولوج إلى عمق الموضوع والخوض في
مختلف جزئياته.

المحور الأول: مفهوم المركز والهامش:

يعتبر المركز و الهامش من بين المصطلحات التي تستدعي
الكثير من التركيز والتمعن من أجل الوصول إلى إدراكها إدراكا
سليما لأنها تجمع بين مجموعة من المتناقضات ولها علاقة
بمبادئ مختلفة كالميدان الاجتماعي و الاقتصادي والسياسي
والثقافي والقومي وغيرها.

أولا- مفهوم المركز:

يحمل مصطلح "المركز" العديد من الدلالات، فعلى
المستوى الاجتماعي يدل على "العلاقات القائمة بين قلب القوة
والثقافة لمجتمع ما و مناطقه المحيطة"¹ وهذا يدل على وجود
طبقتين في المجتمع : الأغنياء والفقراء، الأسياد والعيبد،
الأقوياء والضعفاء فهما عالمان مختلفان و لا يمكن أن يلتقيا
رغم أنهما يتواجدان في مجتمع واحد، فلكل منهما حياة
مختلفة في العادات والتقاليد والمأكّل والملبس والمهجات
والأساليب الكلامية.

صادفت الدراسات المقارنة منذ نشأتها سلسلة من
المعضلات و العراقيل كصعوبة ضبط المفهوم والمصطلح
والمنهج إضافة إلى العديد من الأزمات أشهرها أزمة سنة 1958
بقيادة الباحث الأمريكي "رينيه ويلك" (René Wellek) و أزمة
1963 بقيادة الباحث الفرنسي "رينيه إيتيامبل" (René
Etiemble) مما أدى إلى حدوث ثورة كبيرة في مناهج و مجالات
البحث في الأدب المقارن و هذا بهدف مواكبة التطورات التي
تشهدها الساحة العلمية في مختلف المجالات.

ويعد موضوع المركزيات الثقافية من الموضوعات التي
حظيت باهتمام العديد من الباحثين المقارنين حاليا لكونه
موضوع الساعة، لقد أعيد طرحه في السنوات الأخيرة بشكل
جاد نظرا لعدم قدرة ثقافات الهامش على التحكم في زمام
أمرها رغم نيلها لاستقلالها السياسي ولكنها بقيت دائما تحت
سيطرة ورحمة مستعمرها (ثقافات المركز) و تكمن أهمية هذا
الموضوع في سعيه للكشف عن خفايا هذه القضية الشائكة
التي تعرقل تطور العديد من الثقافات وتمنعها من الخروج من
قوقعتها.

وتهدف هذه الدراسة إلى فضح واقع المركزيات الثقافية في
الوقت الراهن و التي تستند إلى مجموعة من المرجعيات
الفكرية والدينية والعرقية وتتجلى خاصة من خلال
الاستشراق والعولمة ثم الكشف عن الجهود المبذولة من قبل
الدراسات المقارنة في سبيل وضع حد للهيمنة الغربية وإعادة
الاعتبار لثقافات الهامش لأنها قادرة هي أيضا على الإسهام في
صناعة الفكر العالمي والتأثير في مختلف الأوضاع العالمية.

وقد كان اهتمام الباحثين بموضوع المركزيات الثقافية
محتشما في الثقافة العربية خاصة وقد حاول كل باحث من
هؤلاء تناول الموضوع من زاوية معينة و من هذه الدراسات
نذكر:

(1) مقدمة في علم الاستغراب للدكتور حسن حنفي
(1991).

(2) أزمة المركزية الغربية وجنون الإرهاب للسيد ياسين
(مقال في موقع ميكرو سيريا سنة 2016).

- العقلانية الغربية: و تعتبر النموذج الغربي هو النموذج الأوحى للعلم و المعرفة و العقل و الحكمة ومن هنا جاء تهميش الأمم للثقافات الأخرى و منه يأتي مفهوم المركزية الغربية بأنها "عبارة عن الممارسات الواعية أو غير الواعية التي تركز على فرض الحضارة و المصالح الغربية عموما في جميع مجالات الحياة على حساب باقي الثقافات والحضارات والشعوب بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة".⁹ مما يدل على اعتداد الثقافة الغربية بذاتها و اعتبار كل الثقافات الأخرى هامشا ويرى مالك بن نبي أن المركزية الأوروبية "ورثت التقاليد الرومانية من عصر النهضة وأصبحت ثقافة امبراطورية"¹⁰ مما ساقها إلى التسلط والتجبر على سائر الأمم الأخرى ثم إلى الاحتلال فالعنصرية،

كان هؤلاء يعتبرون الحضارة اليونانية أعظم حضارة إنسانية على مختلف المستويات "ففي هذه المرحلة من التاريخ و عمر البشرية تعلم فيها الإنسان كيفية تنظيم حياته في مختلف المجالات بطريقة وتفكير عقلي عقلاني مستبعدا كل أنواع الأساطير و الخرافات حيث أعطى أعلى قيمة للإنسان وجعله مركز الاهتمام ومن الجنس اليوناني أرقى أجناس العالم [...] وذلك لانسامه بالتفكير العقلي والعمل".¹¹ وهذا ما يؤكد الفيلسوف البريطاني برتراند راسل (B.Russel) في مؤلفه "حكمة الغرب".¹²

ثانيا- مفهوم الهامش:

الهامش هو المبعد عن مكان المركز و يتمثل في كل ما هو ثانوي و يأتي في الدرجة الثالثة أو الرابعة، ولعل أول ما استعمل مصطلح المركز و الهامش كان في "بداية القرن التاسع عشر في فرنسا عندما زادت قوة الحكومة على المنظمات السياسية المحلية و طغت عليها"،¹³ وتدل لفظة هامشي أو مهمش على مدى ابتعاد الشخص أو الدولة أو الثقافة عن الانتماء، فالإنسان الهامشي أو المهمش هو الذي "يعيش على هامش المجتمع المنتج فهو عالة عليه لا يساهم في عملية الإنتاج لكنه يستثمرها بطرق غير شرعية كالاغتصاب والسرقة والسطو وهو لا يرى في ذلك عيبا بل يعتبره حقا مشروعاً لأن المجتمع في نظره ظالم [...] فوجب أن يستولي على رزقه بالحيلة أو بالقوة".¹⁴

أما اقتصاديا فيرى أحد علماء الاقتصاد أن المركز يشمل الدول المصنعة و المنتجة و المصدرة و يقول أحد الدارسين أن "الاقتصاد العالمي الحر ينقسم إلى دول المركز ، الدول الصناعية البالغة التقدم في أوروبا الغربية المتحدة واليابان [...] و تقوم هذه الأخيرة بتصدير سلع مصنعة ويعتبر التقدم التقني الذي يسمح بتزايد معدلات الإنتاجية"²، أما سياسيا فالمركز هو محل وجود السلطة السياسية للبلاد مثل العواصم السياسية في العالم حيث الوزارات ومكاتب الأعمال إلى غير ذلك و "الدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف والنطاق و إذا انتهت إلى النطاق الذي هو الغاية عجزت واقتصرت عما وراءها"³ ولكن سرعان ما تنهار الدولة و تسقط عندما يُغلب مركزها "فإن المركز كالقلب الذي تنبعث منه الروح فإذا غلب القلب و مُلك انهزم جميع الأطراف"⁴ و من هنا تتجلى لنا أهمية المركز و مكانته.

أما على مستوى الأدب فهناك الأدب الرسمي أو الأدب الموجه إلى النخبة و الذي يتميز بالنضج والجودة وهو الأدب الذي "يحظى بالرعاية السامية [...] فتقام له المهرجانات و الأُماسي و يدرج في المناهج التربوية و إجمالاً هو الأدب الرسمي المتداول"⁵ و هو أيضا حسب بعض الدارسين "أدب سلطوي يجسد موقف المثقف المركزي و همومه وأسئلته و دوره في إنتاج السلطة و قدرته على توجيه خطابها"⁶ و يعد خطاب المركز "الخطاب الرسمي الذي لا يقيم وزنا للكيانات الأخرى"⁷ لأنه هو صاحب السلطة والمتمسك بزمام الأمور.

ومن أهم ثنائيات المركز والهامش في الأدب هي: الشعر والنثر، الفصيح والعامية، و في الأدب المقارن غالبا ما تتجلى عن طريق الأنا والآخر.

و أما المركزية الغربية فهي ترتبط بمفاهيم عدة:

- مركزية الإنسان: وهي "كل نظرية تجعل الإنسان مركزا للعالم وغاية تخضع لها كل شيء و كل ما في العالم وجد من أجل خدمته".⁸
- مركزية الأنا و الذات: و تعني رد كل شيء إلى الذات و تتجلى خاصة لدى الأطفال في بعض المراحل من نموهم.
- مركزية المجتمع: و هي تعد المجتمع هو المركز الذي تدور حوله مختلف الظواهر الاجتماعية.

المواد المصنعة سواء ما يخص المواد الغذائية أو الصيدلانية أو الصناعية.

تعتمد دول الهامش اقتصاديا على دول المركز بشكل كلي فهي تابعة لها رغم حصولها على استقلالها السياسي مما جعل دول المركز تفرض سيطرتها عليها اقتصاديا و من هنا كانت دول العالم المتطور تعمل جاهدة حتى تحافظ على مركزها و مكانتها و أن تُبقي أيضا على الدول النامية ضعيفة و متخلفة و تابعة لها دائما.

و التهميش لا يخص فقط المجال الاجتماعي أو الاقتصادي بل للأدب "كذلك هوامشه أفكارا وآراء وسردا [...] و لكن ليس مفهوم التهميش في العلوم الاجتماعية هو عينه في الخطاب الأدبي".²⁰

ويتجلى التهميش في الأدب من خلال " صورة ذاتية تتعلق بذات الكاتب المهمشة وصورة موضوعية تتعلق بالمواضيع المقصاة عن الكتابة الإبداعية وصورة جمالية تتعلق بالشكل أو النوع الأدبي و مخالفة تقاليد الكتابة المعروفة ".²¹ ومن أهم التسميات التي أطلقت على أدب الهامش نذكر:

- أدب العامة

- الأدب التجاري

- الأدب اللأشعري

- الأدب المرمي

- الأدب السفلي.²²

و يرى حسن بحراوي أن أدب الهامش " هو كل أدب ينتج خارج المؤسسة سواء أكانت سياسية أو اجتماعية أو ثقافية أو أكاديمية . وهو بذلك يقع بعيدا عن الرعاية والاحتضان بل ويجري العمل على نبذه و استبعاده من دائرة الضوء، وقد تسلط عليه الرقابة والمنع إذا ما بدا عليه أنه يتجاوز الخطوط الحمراء"²³، كأن يخرج عن القواعد الفنية المعتادة والمعمول بها مثل قصيدة التفعيلة في بداياتها أو قصيدة النثر في الأدب العربي وبهذا بات الخروج عن "المألوف يتحدى سلطة الكتابة و يعتبر أدبا هامشيا في مواجهة السلطة التي تفرض قيودها على الكتابة ليكون بذلك أدب الهامش هو المتمرد على

وقد عرف ألبين تودمان (A.Todman) التهميش بأنه "جملة الاجراءات والخطوات المنظمة التي على أساسها توضع الموانع أمام الأفراد والجماعات حتى لا يتحصلوا على الحقوق والفرص والموارد وخدمات السكن، الصحة، التوظيف، التعليم، المشاركة السياسية، وغيرها من الحقوق المتاحة للمجموعات الأخرى والتي هي أساس التكامل الاجتماعي ويتم استخدام "التهميش" في أجزاء واسعة من العالم ليعبر عن التمييز والإقصاء الاجتماعي"¹⁵ و أما الدكتور مي مجيب عبد المنعم فتري أن التهميش هو "عملية الاستبعاد من المشاركة الفعالة في المجتمع"¹⁶ و هو أيضا " تمييز ضد بعض الأفراد أو الجماعات في المجالات السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية مما يؤثر في وضع هؤلاء الأفراد و الجماعات داخل هيكل القوة المجتمعية"¹⁷، وغالبا ما كان ذلك يولد نوعا من التمرد و الثورة من قبل هؤلاء المهمشين. هذا وتشمل فئة المهمشين "سكان الأطراف من المدن والفجر والمتشردين والباعاء الجائلين وغير ذلك من فئات تميزت بخصائص لافتة للنظر ذات دلالة اجتماعية خاصة داخل النسق الاجتماعي أو خارجه واحتلت مكانة هامشية في حياة المجتمع إذ نُبتذت طبقيا من الجماعات الأخرى أعلى السلم الاجتماعي".¹⁸ ويذهب السيد عثماوي إلى أن "الجماعات الهامشية المنحرفة يرتبط نموها وازديادها بالأوضاع الاجتماعية، السياسية والاقتصادية، وأن عنف هذه الجماعات مرتبط بعنف السلطة وتعسفها وترتبط الظاهرة أيضا بفقر هذه الجماعات".¹⁹

وقد كان المركز (السلطة) يعمل قدر الإمكان لإبعاد هذه الفئات المدممة (الهامش) عن عالمه لأنها لا ولن تتمكن من الارتقاء إلى مستواه أو تكون منه لذا كانت نظرتهم إليها غالبا ما يعلوها الازدراء والدونية، وعليه فإن التهميش عادة ما يكون نتيجة لأوضاع اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية صعبة و قاسية.

أما على المستوى الاقتصادي فإن دول الهامش هي الدول التي كان معظمها محتلا من قبل دول المركز الاستعمارية وغالبا ما يكون الفاصل بينهما شاسعا و لا سيما على المستوى الاقتصادي، إذ تعتمد دول الهامش على تصدير المواد الأولية كالبترول و الغاز و الحديد و الفحم إلى غير ذلك لئلا تستورد

والازدهار إلى مختلف أنحاء المعمورة مع الملاحظة أن مكانة هذه الثقافات لا تتغير ولن تتغير حسب هذه المدرسة بالطبع.

- ثقافات الهامش وهي ثقافات الشعوب المستعمرة سواء في إفريقيا أو في آسيا أو في أمريكا اللاتينية، وهي ثقافات ضعيفة وتابعة لثقافات المركز في كل المجالات إضافة إلى كونها ثقافات مستهلكة فقط وغير منتجة فهي تكتفي بالتأثر ولا تبتكر أي شيء، و تبقى هذه الثقافات إلى أبد الدهر على هذه الحال.

وبري جان ماري كاري (J.M.Carré) على غرار مواطنيه بول هازار (P.Hazard) وفرناند بالدنسبرجي (F.Baldensberger) أن "حيثما لا علاقة بعد بين رجل ونص، بين أثر و بيئة أو بين بلد و مهاجر، تتوقف العلاقة المشتركة في الأدب المقارن لتبدأ علاقة النقد أو علاقة البيان والبلاغة".²⁶ وبناء عليه لا يمكن إجراء أي دراسة مقارنة إلا إذا تمكنا من إثبات وجود علاقة بين المؤثر والمتأثر مع تحديد طبيعتها سواء كانت استعمارية أو اقتصادية أو ديبلوماسية...لأن هذا ما سيحدد المؤثر(المركز) والمتأثر(الهامش).

وهنا يتجلى التطبيق الآلي و التعسفي لقواعد الفلسفة الوضعية التي ترى أنه كلما اجتمعت مجموعة من الأسباب فهي ستؤدي بالضرورة إلى النتائج نفسها أي كلما كانت هناك علاقة مباشرة بين ثقافة مركز وثقافة هامش سيكون التأثير حتما من قبل ثقافة المركز نحو ثقافة الهامش.

لقد سلكت المدرسة الفرنسية هذا المسلك لتثبت أفكارها العنصرية، فهي تريد بهذا أن تبين وتؤكد تبعية مستعمراتها لها عسكريا وسياسيا وحتى ثقافيا وأرادت أن تصل إلى أن "الغرب هو معلم أبدي والأغرب هو تلميذ أبدي، فالعلاقة بينهما أحادية الطرف، أخذ مستمر من الثاني و إبداع مستمر من الأول و مهما تعلم التلميذ فإنه يظل معلما و لن يلحق التلميذ بالأستاذ لأن معدل الإبداع عند الأستاذ أسرع بكثير من معدل الاستهلاك عند التلميذ فيجري التلميذ لاهثا وراء المعلم و لن يلحق به".²⁷

هذا و قد وضعت مجموعة من المعايير لتحديد الأدب القومي تتمثل في اللغة و الحدود السياسية أو الجغرافية، ويتجلى ذلك في قول أحد أقطاب هذه المدرسة: "إن تاريخ الأدب المقارن هو تاريخ العلاقات الأدبية الدولية، من هنا

المنظومة الرسمية أو الثائر على نمط الكتابة التقليدية و الذي تشجعه مختلف دور النشر".²⁴

والأدب الهامشي هو أيضا الأدب الذي يكتبه الأدباء المهمشون في المجتمع ليعبروا عن ثورتهم على الأوضاع أو للتمرد على السلطة و العمل على كسر بعض المقدسات أو تجاوز بعض المحظورات والطابوهات أو للمطالبة بحقوقهم المهضومة.

وبناء على ما سبق نستنتج أن طبيعة العلاقة بين المركز و الهامش هي علاقة غالب بمغلوب فتارة يعلوها التعايش و التفاهم و لو كان ذلك سطحيا وتارة أخرى تشوبها الصراعات و المشاحنات.

المحور الثاني: المركز والهامش في الدراسات المقارنة:

أولا- المركز والهامش في المدرسة الفرنسية التاريخية للأدب المقارن:

ولد الأدب المقارن في فرنسا في حوالي الربع الأول من القرن التاسع عشر بعدما وجد الأرضية الخصبة والمناسبة التي ينمو ويتربع فيها.

وقد كانت المدرسة الفرنسية التاريخية أول مدرسة تظهر في مجال الدراسات المقارنة ومن أهم المفاهيم التي وضعها للأدب المقارن أنه "دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض".²⁵ أي أنها تهتم بدراسة عملية التأثير والتأثر بين الآداب القومية المختلفة فهي ترى أنه لا وجود لأدب قومي خالص بمعنى أن لكل أدب مصدر ينبع منه لذا كرست معظم دراساتها لتحديد المؤثر والمتأثر وكانت غالبا ما تعتمد على نظام الثنائيات أي أنها تقارن بين أدبيين أو أدبين أو روايتين أو قصيدتين إلى غير ذلك لأن هدفها الأساسي كان ينحصر في: من أثر في من؟ مع الملاحظة أن لها طريقة خاصة وشروط صارمة في دراساتها.

لعل أول ما يصادفنا في المنهج الفرنسي هو تقسيم الثقافات إلى قسمين رئيسيين هما:

- ثقافات المركز وتتمثل في الشعوب الأوروبية الاستعمارية كفرنسا وإنجلترا وإسبانيا وإيطاليا وألمانيا، وهي ثقافات قوية و فعالة ومؤثرة وهي التي تنقل الحضارة والتطور

الأدبي الذي يُعنى بالظروف المحيطة بالأديب والدافعة إلى إنتاج عمل إبداعي، وبناء على ذلك كانت تحدد المؤثر والمتأثر وهذا ما جعل الدراسات المنجزة تحت إطار هذه المدرسة سطحية و ناقصة لأنها كانت بعيدة عن الدراسة الفنية و الجمالية للنصوص و لذا سميت بالمدرسة التاريخية و نعتت بالمركزية الأوروبية.

حاولت المدرسة الفرنسية التاريخية تسخير الدرس المقارن لأغراضها العنصرية والاستعمارية، إذ أرادت استرجاع مكانتها المرموقة التي كانت تشغلها طيلة القرن السابع عشر (العصر الكلاسيكي) حين كانت متربعة على عرش الثقافة الأوروبية وكانت هي المؤثرة و لكنها سرعان ما فقدتها في القرن الثامن عشر عندما انتقل المشعل إلى الثقافة الألمانية ومنذ ذلك الوقت و هي تعمل جاهدة على إيجاد الوسيلة الناجعة أو الفرصة المناسبة للعودة إلى محل الصدارة، ومن هنا لجأت إلى التوسعات الاستعمارية التي ستوفر لها أيضا المواد الأولية لمصانعها وتمكنها من مواصلة العمل والرفع من الانتاج كما استغلت الدراسات المقارنة لأغراضها الخاصة ودفعتها في اتجاهات أبعدتها عن الموضوعية العلمية وأسقطتها في النظرة العنصرية والاستعمارية.

لقد كان الفكر الغربي الاستعماري ينكر التاريخ الفكري و الحضاري للشعوب التي احتلها فهو لا يعتبرها موجودة قبل أن يحتلها بل هو الذي أنشأها لأنها قبل الاحتلال كانت شعوبا بدائية و متخلفة كما يسعى دائما إلى إقناعهم أن الثقافة الأوروبية هي التي تمثل التطور و الازدهار.³⁰

وقد بقيت المدرسة الفرنسية التاريخية تسير على هذا المنهج إلى أواخر الخمسينات من القرن العشرين مما جعلها تدخل في صراع مع المدرسة الأمريكية و مجموعة من الشباب الفرنسيين المثقفين المنفتحين فكريا على مختلف الثقافات غير الأوروبية مما أدى إلى وقوع أزمة الأدب المقارن.

المحور الثالث: التصدي لفكرة المركزية الأوروبية:

أولا- التصدي الغربي لفكرة المركزية الأوروبية:

1 - التصدي الأمريكي للمركزية الأوروبية:

نشأت أزمة الأدب المقارن في أواخر الخمسينات من القرن العشرين ولعل أول من أطلق عليها مصطلح أزمة هو الباحث

يتوقف الباحث المقارن عند الحدود اللغوية أو الوطنية و يراقب تبادل المواضيع و الأفكار و الكتب و المشاعر بين أديبن أو أكثر.²⁸

فاللغة عند أصحاب هذه المدرسة ليست فقط وسيلة للتواصل بين الناس بل هي تمثل ثقافة معينة لأنها تحمل مجموع الأفكار و المشاعر و الخيالات و العقليات و المصائر المشتركة بين أبناء ذلك الشعب أو تلك الأمة ومن ثم كانت المدرسة الفرنسية تعتبر كل الأعمال الأدبية المكتوبة باللغة الفرنسية من الأدب الفرنسي و لا يصح المقارنة بينها وبين الأعمال الأدبية الفرنسية و من هنا اشتطت توفر اختلاف اللغة بين الآداب حتى تتمكن من المقارنة بينها، وكان هدفها الأساسي من هذا الشرط هو إثبات تبعية مستعمراتها لغويا و ثقافيا و أنها لم تنتصر عليها عسكريا و سياسيا فحسب بل ثقافيا وفكريا أيضا.

إضافة إلى المعيار اللغوي كانت الحدود السياسية أو الجغرافية من الشروط الأساسية لإجراء دراسة مقارنة إذ لا يمكننا المقارنة بين أديبين من بلدين لا يوجد بينهما حدود سياسية أو جغرافية، فلا يتسنى لنا مثلا المقارنة بين محمد ديب و فيكتور هوغو لأنهما كتبا باللغة نفسها ولأنه لا توجد حدود سياسية بين فرنسا و الجزائر التي باتت تابعة لها بفعل الاحتلال.

علاوة على ذلك يذهب جان ماري كاري إلى أن الأدب المقارن "فرع من التاريخ الأدبي، لأنه دراسة للعلائق الروحية الدولية، و الصلات الواقعية التي توجد بين بيرون وبوشكين وجوته وكارليل و والتر سكوت و فيني أي بين المنتجات و الإلهامات بل بين حيوات الكتاب المنتمين إلى آداب عدة و هو لا ينظر من وجهة جوهريّة إلى المنتجات من حيث قيمها الأصلية و لكنه يعنى على الأخص بالتحويلات التي تخضع لها كل دولة أو كل مؤلف".²⁹

و من هنا نستنتج أن المدرسة الفرنسية كانت تهتم بالأوضاع المحيطة بالأدباء سواء على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي أو السياسي و منها تحكم لهم أو ضدهم فهي لا تعبر الأعمال الإبداعية أهمية كبيرة بل تسعى إلى استخراج بعض المقاطع التي تتناسب مع أفكارها وأهدافها و هذا ما جعل جان ماري كاري يدرج الأدب المقارن ضمن فروع التاريخ

المقارنة من خلال الجمع بين المناهج التاريخية و التأمل النقدي و الجمالي كما كان يدعو إلى دراسة "علم العروض المقارن و علم مقارنة الصور و دراسة الترجمة فنا أي الدراسة المقارنة للترجمات[...]. كذلك دراسة البنية لأن كل إنتاج أدبي هو في النهاية مجموعة تركيبية تنتهي إلى نوع من الأنواع".³⁴

زيادة على ذلك، كان إيتيامبل يطالب بالتوفيق بين المفهومين الفرنسي والأمريكي للأدب المقارن.³⁵

لقد تحقق حلم إيتيامبل عام 1963 بظهور الشعرية المقارنة رغم عدم اكتمالها جيدا و كذا التوفيق بين المفهومين الفرنسي و الأمريكي رغم أن ذلك كان لصالح المفهوم الأمريكي.³⁶

هذا و قد ذهب كل من بيشوا و برونيل و روسو مؤلفو كتاب "ما الأدب المقارن؟" إلى أن "الأمم التي تمتلك أدبا عظيما هي الأسوأ مكانة حيث تتمركز كل قواها حول ذاتها".³⁷

و بمساعدة هؤلاء الدارسين الشباب تمكنت المدرسة الفرنسية الحديثة من التخلص إلى حد معتبر من العصبية المفرطة لأدهم القومي و للأدب الأوروبية و باتت تهتم أكثر بالدراسات الفنية والجمالية للنصوص الأدبية.

و بناء على ذلك، كانت أزمة الأدب المقارن فعلا نقطة تحول جد مهمة بالنسبة للمدرسة التاريخية.

و لكن رغم ذلك كله يبقى الاستشراق "حالة مستمرة و ليس حالة تاريخية عابرة رغم تغير ظروف التجربة الاحتكاكية بين الشرق و الغرب، مازال العقل الاستشراقي استعلائيا و مازال يرتبط بفكرة تتبع الشرق و إبقائه في فلك أوروبا".³⁸

ثانيا- تصدي ثقافات الهامش للمركزية الأوروبية:

لقد لجأت ثقافات الهامش ولاسيما الشرقية منها والعربية بصورة أخص إلى وسيلة الاستغراب حتى تتمكن من مواجهة مخاطر التغريب المترتبة بها و تهدف إلى إلغاء هويتها وتجريدها من خصوصيتها القومية، فما هو التغريب والاستغراب؟

التغريب هو (The westernisation) الذي ظهر بشكل قوي في ثقافات الهامش حتى بعد تحصيلها على استقلالها السياسي، و بات يهدد استقلالها الفكري و الثقافي إذ امتد إلى "أساليب

الأمريكي رينيه ويلك (R.Wellek) و كان ذلك سنة 1958 و هو تاريخ انعقاد المؤتمر الثاني للرابطة الدولية للأدب المقارن بشابل هيل (Chapel Hill) بالولايات المتحدة الأمريكية.

ومن أهم الانتقادات التي وجهت للمدرسة التاريخية فيه تحولها إلى مجرد ملاحق للأدب القومي إذ كان هدفها الأساسي قوميا بحثا وأهملت الجوانب الأخرى من الدراسة و لا سيما النصوص الأدبية.

أما هنري رماك (H.Remak) فلا يشترط "ثبوت التأثير و التأثير أساسا للدراسة المقارنة و بذلك يفرغ المدرسة الفرنسية من منطقتها وفلسفتها".³¹

و من هنا يرى أحد الدارسين أنه "لابد للأدب المقارن [...] من ثورة شاملة يجدد فيها نفسه و يساير ركب التطور العلمي الهائل ولا يبقى أسير خلافات صغيرة حول التسمية [...] وأن يترك خلافات المجد حول أول من دعا إلى الأدب المقارن".³²

2 - التصدي الفرنسي للمركزية الأوروبية:

إضافة إلى المدرسة الأمريكية، وقفت كوكبة من الدارسين الفرنسيين الشباب من ذوي الفكر التقدمي أمثال رينيه إيتيامبل (R.Etiemble) و كلود بيشوا (C.Pichois) و أندري روسو (A.Rousseau) وغيرهم في وجه المدرسة الفرنسية التاريخية و انتقدوا أفكارها و مناهجها و نعتوها بالعنصرية و الرجعية وكانوا ينادون بضرورة التخلي عن ذلك المنهج الذي لا يخدم الدراسات المقارنة في فرنسا ولا الأدب القومي الفرنسي و هذا ما أدى إلى ظهور المدرسة الفرنسية الحديثة للأدب المقارن.

وقد دعا رينيه إيتيامبل المدرسة التاريخية للأدب المقارن إلى الانسلاخ من كل شوفينية وإقليمية واهتمها بالتعصب الإقليمي والقومي كما كان يطالب بتوسيع مجال المقارنة الأدبية حتى تصبح عالمية والاهتمام بالأدب القومية الجديدة للبلدان التي نالت استقلالها سواء في إفريقيا أو في آسيا أو في أمريكا اللاتينية.³³

كما كان ينادي بضرورة الخروج من المركزية الأوروبية و التفتح على عدد من البلدان الأخرى كالصين والعالم العربي، و كان يرى أيضا أن الدراسات المقارنة ستنتج نحو الشعرية

الشعور بالعظمة و التفوق والتميز لدى الآخر الغربي و احتقاره للشرقي.

و لكي نفقه معنى الاستغراب أكثر يجدر بنا التطرق إلى الفرق بينه و بين الاستشراق، لقد برز الاستشراق بعد سقوط الأندلس وانتصار الغرب عن الشرق وفي فترة الاستكشافات الجغرافية أما الاستغراب فقد ظهر في العصر الحديث أي بعد استقلال معظم الشعوب العربية "كدفاع عن النفس..." والتحرر من عقدة الخوف تجاه الآخر و قلب الموازين رأساً على عقب وقلب المائدة في وجه الخصوم".⁴¹

هذا ولم يكن الاستشراق "محايذا بل غلبت عليه مناهج تعبر عن بنية الوعي الأوروبي التي تكونت عبر حضارته الحديثة مثل المناهج التاريخية والتحليلية والاسقاطية والأثر والتأثر في حين أن وعي الباحث الآن في علم الاستغراب أقرب إلى الشعور المحايد لأنه لا يبغى السيطرة أو الهيمنة بل يبغى فقط التحرر من أسار الآخر حتى يوضع الأنا و الآخر على نفس المستوى من الندية و التكافؤ".⁴²

ويهدف علم الاستغراب إلى "إعادة الشعور للأوروبي إلى وضعه الطبيعي و القضاء على اغترابه وإعادة ربطه بجذوره القديمة وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص من أجل التحليل المباشر له وأخذ موقف بالنسبة لهذه الحضارة التي يظنها الجميع مصدر كل علم وهي في الحقيقة حضارة غازية لحضارة أخرى ناشئة..." إن أنا الاستغراب أكثر نزاهة وموضوعية وحيادا من أنا الاستشراق".⁴³

و هكذا كان علم الاستغراب يعمل كل ما بوسعه لوضع حد للمركزية الأوروبية والكشف عن كيفية توصلها إلى مركز الصدارة عبر العصور التاريخية المختلفة وسعيها إلى فرض هيمنتها على مختلف شعوب العالم من خلال المثاقفة مثلا التي "يوهم الغرب بأنها تعني الحوار الثقافي أو التبادل الثقافي أو الثقيف وهي في الحقيقة تعني القضاء على الثقافات المحلية من أجل انتشار الثقافة الغربية خارج حدودها وهيمنتها على غيرها واعتبار الغرب النمط الأوحى لكل تقدم حضاري ولا نمط سواه وعلى كل الشعوب تقليده والسير على منواله، وقد أدى ذلك إلى إلغاء خصوصيات الشعوب وتجاربها المستقلة واحتكار الغرب وحده حق إبداع التجارب الجديدة".⁴⁴

الحياة اليومية و نقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة و فن العمارة، صاحب الانفتاح الاقتصادي على الرأسمالية العالمية الانفتاح اللغوي على الألفاظ الأجنبية، فكل كلمة عربية تتجاوز عقدة نقصها بإلحاقها بكلمة غربية أو تنقل الألفاظ الأفرنجية إلى الحروف العربية و ضاعت اللغة الفصحى وازدوجت مع العامية[...] وتحولت مدنا إلى خليط من أساليب العمارة لا هوية لها[...] و غاب الزي الوطني".³⁹

هذا وقد أصبح الغرب هو حلم جل الشباب في دول الهامش و منها الدول العربية، فالحل يسعى بكل ما يملك لإيجاد سبيل للسفر إلى العالم الغربي من أجل العيش والاستقرار كما بات الاستيراد هو هم التاجر و المستهلك و تحول الاقتصاد الوطني إلى اقتصاد تابع[...] كما تحولت مساحة كبيرة من ثقافتنا المعاصرة إلى وكالات حضارية للغير و امتداد لمذاهب غربية: اشتراكية، ماركسية، ليبرالية، قومية، وجودية، وضعية، شخصانية[...] حتى لم يعد أحد قادرا على أن يكون مفكرا أو عالما أو فنانا إن لم يكن له مذهب ينتسب إليه".⁴⁰

و لعل الملفت للانتباه حقا هو استفحال ظاهرة التغريب في الآونة الأخيرة خاصة مع تطور وسائل التواصل وتوفير خدماتها بأسعار معقولة جعلت الكل يُقبل عليها بصورة لم يسبق لها مثيل و بهذا بات الكل منفتحاً على ثقافة الغرب و صار يغرف منها يوميا و يشبع فضوله ونقصه من خلالها.

و من هنا جاء الاستغراب ليوافق خطره الاستشراق و التغريب معا. و الاستغراب هو "الوجه الآخر والمقابل بل و النقيض من الاستشراق، فإذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا (الشرق) من خلال (الغرب) يهدف علم الاستغراب إذن إلى فك العقدة التاريخية المزدوجة بين الأنا و الآخر والجدل بين مركب النقص عند الأنا و مركب العظمة عند الآخر، فمنذ الاستشراق القديم الذي نشأ و اكتمل في عنفوان المد الاستعماري الأوروبي لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن الشعوب المستعمرة أخذ الغرب دور الأنا فأصبح ذاتا و اعتبر اللأغرب هو الآخر فأصبح موضوعا وبهذا تحول الصراع بين الغرب و اللأغرب إلى صراع بين اللاغرب و الغرب و عليه جاء الاستغراب ليضع حدا لانتهار الأنا الشرقي بالآخر الغربي والقضاء على إحساسه الدائم بالنقص و الدونية أمامه نظرا لكونه السيد و المحتل القديم، وفي المقابل للقضاء على

خاتمة:

لقد كانت فكرة الثقافات المركزية و لاسيما الغربية قديمة فهي تعود إلى الحضارات العتيقة اليونانية والرومانية على وجه الخصوص و التي كانت تعتبر كل الشعوب غير المنتمية إليها شعوبا بربرية ومتوحشة و حصرت كل إبداع أو ابتكار على مستواها و جعلت العبقريّة والحضارة ملكا لها وهي التي تجود بها على الشعوب الأخرى .

وبناء على ما سبق، نستخلص الجهود الكبيرة التي تبذلها الدراسات الأدبية المقارنة للقضاء على تلك العلاقة غير المتوازنة و غير المتكافئة بين الثقافات الغربية واللأغربية وأن لكل ثقافة قيمتها وخصوصيتها وهي جديرة بالاحترام والتقدير ، فلا وجود لثقافة قوية على الدوام وكذا لا وجود لثقافة ضعيفة على الدوام فكل ثقافة في العالم تمر بمراحل ازدهار والقوة وبمراحل ضعف وتخلّف، فالثقافة الأوروبية مثلا لم تكن دائما متطورة و مؤثرة بل عاشت ما يقرب عن ألف سنة في عصور الظلمات والجمود الفكري والتخلّف أثناء العصور الوسطى في حين كانت الثقافة العربية الاسلامية في قمة التطور، وعليه ينبغي وضع حد لهذه الأفكار الاستعمارية و العنصرية التي تريد إبقاء مستعمراتها القديمة تابعة لها حتى تتمكن منها وتكون دائما أدوات طيعة في يديها حتى تستغلها لصالحها.

وقد أسهمت التغيرات التي شهدتها الساحة الثقافية العالمية في منتصف الخمسينات وبداية الستينات من القرن الماضي من استقلال العدد الأكبر من الشعوب المحتلة وبزوغ شمس الحضارات الشرقية من جديد وخاصة الثقافات الصينية واليابانية والهندية و غيرها في تعزيز مكانة هذه الثقافات التي كانت مهمشة في الماضي، إضافة إلى بدء الثقافة العربية خاصة في فرض وجودها على الساحة الثقافية العالمية من خلال حصول أحد أعمدة الرواية العربية الحديثة " نجيب محفوظ" على جائزة نوبل للأدب.

قائمة المراجع:

الكتب:

ابن خلدون عبد الرحمن: ديوان المبتدأ والخبر في بتاريخ العرب والبربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، (د.ط)، دار الفكر، بيروت، 2007.

- الخطيب حسام: آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، ط1، دار الفكر- دار الفكر المعاصر، دمشق، بيروت، 1992.
- إسماعيل أبكر آدم: جدلية المركز و الهامش قراءة جديدة في دقات الصراع في السودان، معهد الدراسات الافريقية و الآسيوية، جامعة الخرطوم، 2013.
- المناصرة عز الدين: النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، ط1، دار مجدلاوي للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، 2005.
- إيتيامبل روني: أزمة الأدب المقارن، ترجمة سعيد علوش ، المؤسسة الحديثة، الدار البيضاء، 1987.
- حنفي حسن: مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر و التوزيع، القاهرة، 1991.
- راسل برتراند: حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، الجزء (01)، المجلس الوطني للثقافة و الفنون والآداب، الكويت، 1983 .
- سرحان هيثم: الأنظمة السيميائية دراسة في السرد العربي القديم، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، 2008 .
- طرشونة محمد: إشكالية المنهج في النقد الأدبي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2008 .
- عبد العزيز أحمد: نحو نظرية جديدة للأدب المقارن، الجزء (01)، ط1 ، مكتبة الأنجلوالمصرية، القاهرة، 2002 .
- علوش سعيد: مدارس الأدب المقارن- دراسة منهجية- ، ط1، المركز الثقافي العربي، 1987 .
- مان ميشيل: موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري و سعد عبد العزيز فضلو، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999 .
- مذكور إبراهيم(التقديم): المعجم الفلسفي، تحت إشراف مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1995 .

المقالات:

- بن قيراط حنان: المركز و الهامش في الأدب، مجلة حوار الحضارات التنوع الثقافي و فلسفة السلم، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، المجلد 06 ، العدد 01، مارس 2017 ، ص 53 .

الأطروحات:

- جييج صورية: المركز و الهامش في روايات عز الدين جلاوي، أطروحة دكتوراه غير منشورة، التخصص أدب حديث ومعاصر، كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة، 2015/ 2016 .

مواقع الانترنت:

- ⁷ إسماعيل أبكر آدم، جدلية المركز والهامش قراءة جديدة في دفاتر الصراع في السودان، معهد الدراسات الإفريقية والآسيوية، جامعة الخرطوم، 2013، ص46.
- ⁸ مذكور إبراهيم (التقديم)، المعجم الفلسفي، تحت إشراف مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1995، ص180.
- ⁹ بن سراي نصر الدين، بين مركزية الأنا الغربية و ميلاد الأصوليات: نقد غارودي للذاتية الغربية، الاستغراب، مجلة المعرفة، مجلد 04، العدد 10، في <https://search.emarefa.net/detail/BIM-812564> شوهد في 2024/03/14 على 11:30.
- جغام ليلى، وصف التجربة الشعرية للشاعر رضا ديداني ممثل أدباء الهامش بالجزائر، مقال منشور في ندوات المخبر بقسم الآداب و اللغة العربية، جامعة بسكرة، في <https://labreception.net> شوهد في 2024/03/15 على الساعة 10.
- جلول محمد زاهد، مفهوم المركزية الغربية عند المفكر مالك بن نبي، الملتقى الفكري للإبداع، سنة 2008 <https://almultaka.org> شوهد في 2024/03/15 على الساعة 11.
- ¹¹ المرجع السابق.
- ¹² ينظر راسل برتراند، حكمة الغرب، ترجمة فؤاد زكريا، الجزء الأول، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1983، ص65.
- ¹³ جيجخ صورية، المركز والهامش في روايات عزالدين جلاوي، أطروحة دكتوراه، تخصص أدب حديث ومعاصر، كلية الآداب واللغات، جامعة محمد خيضر بسكرة، سنة 2016/ 2015، ص 19.
- ¹⁴ طرشونة محمد، إشكالية المنهج في النقد الأدبي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2008، ص81.
- ¹⁵ شالوكا عادل إبراهيم، حول مفهوم التهميش و أشكاله، 07/ 15 2012/ على الموقع <http://www.alrakoba.net> تاريخ الزيارة 03/17 2024/ على الساعة 18:30.
- ¹⁶ المرجع السابق.
- ¹⁷ المرجع السابق.
- ¹⁸ <http://amal-news.com> تاريخ الدخول 2024/ 03/ 04، الساعة 09:00.
- ¹⁹ مجدي أحمد توفيق، أدب المهمشين، <http://www.je at.com> تاريخ الدخول 2024/ 03/ 04 الساعة 21:45.
- ²⁰ بن قيراط حنان، المركز والهامش في الأدب، مجلة حوار الحضارات التنوع الثقافي وفلسفة السلم، كلية العلوم الاجتماعية جامعة عبد الحميد بن باديس، مستغانم، الجزائر، المجلد السادس، العدد 01، ل15/ 03/ 2017، ص 53.
- ²¹ المرجع السابق، ص 54.
- ²² المرجع السابق، ص 56.
- ²³ المرجع السابق، ص 56.
- ²⁴ المرجع السابق، ص 56.
- ²⁵ علوش سعيد، مدارس الأدب المقارن-دراسة منهجية- المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص 64.
- ²⁶ المرجع السابق، ص 64.
- ²⁷ حنفي حسن، مقدمة في علم الاستغراب، الدار الفنية للنشر و التوزيع، القاهرة، 1991، ص38.
- ²⁸ علوش سعيد، مدارس الأدب المقارن، ص64.
- ¹ مان ميشيل، موسوعة العلوم الاجتماعية، ترجمة عادل مختار الهواري، سعد عبد العزيز فضلول، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص 99.
- ² المرجع السابق، ص99.
- ³ ابن خلدون عبد الرحمن، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت لبنان، 2007، ص173.
- ⁴ المرجع السابق، ص 174.
- ⁵ جغام ليلى، وصف التجربة الشعرية للشاعر رضا ديداني ممثل أدباء الهامش بالجزائر، مقال منشور في ندوات المخبر قسم الآداب واللغة العربية، جامعة بسكرة <https://www.labreception.net> ، شوهد في 15 مارس 2024 على الساعة 10.
- ⁶ سرحان هيثم، الأنظمة السيميائية، دراسة في السرد العربي القديم، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص247.

³⁶ المرجع السابق، ص124.³⁷ المرجع السابق، ص137.³⁸ المرجع السابق، ص21.³⁹ حنفي حسن، مقدمة في علم الاستغراب، ص22، 23.⁴⁰ المرجع السابق، ص23، 24.⁴¹ المرجع السابق، ص30.⁴² المرجع السابق، ص31.⁴³ المرجع السابق، ص32.⁴⁴ المرجع السابق، ص36.²⁹ المرجع السابق، ص63.³⁰ ينظر حنفي حسن، ص39، 40.³¹ المرجع السابق، ص37.³² عبد العزيز أحمد، نحو نظرية جديدة للأدب المقارن، الجزء 01،

مكتبة الانجلو المصرية، ط1، القاهرة، 2002، ص07.

³³ ينظر إتياميل روني، أزمة الأدب المقارن، ترجمة سعيد علوش،

المؤسسة الحديثة، الدار البيضاء، 1987، ص15.

³⁴ المناصرة عز الدين، النقد الثقافي المقارن منظور جدلي تفكيكي، دار

مجدلاوي للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2005، ص123.

³⁵ المرجع السابق، ص123.